محمد الفاتح والإنجازات الإدارية

أنجز محمد الفاتح إنجازات إدارية لا تقل أهميتها عن إنجازاته العسكرية وفتوحاته، نأخذ منها ما يلي:

١ ـ العلم والعلماء:

ومن خير ما أسداه السلطان محمد الفاتح، ما ابتدعه من التنظيم والتنسيق في درجات العلماء ومراتبهم والتمييز بين المناصب والوظائف العلمية كالتدريس والقضاء، وقد جعل التدريس نفسه درجات، وكذلك القضاء درجات، فلا يشغل وظيفة من هذه الوظائف إلا من ثبتت كفايته وأهليته لها.

وكان يحتفظ بسجل خاص في قصره يثبت فيه أسماء العلماء ومنزلة كل منهم في العلم وماله من كفاية وانتاج، فإذا ما خلا منصب من المناصب الكبيرة في الدولة رجع إلي هذا السجل واختار لهذا المنصب الشاغر أصلح العلماء له.

٢ ـ التنظيم الإدراي:

وضع السلطان محمد الفاتح قانونًا لتنظيم شئون الإدارة الداخلية وتنظيم اختصاصات كبار رجال الدولة وبعض التقاليد والمراسيم، ولقب من أجله بـ (القانوني) غير أنه لم يشتهر به اشتهاره بلقب (الفاتح)، وقد أظهر الفاتح في الناحية الإدارية كفاية ومقدرة كما كان في الناحيتين السياسية والحربية.

وقد كان أول ما قام به عقب توليه السلطنة، أن عزل الموظفين القدماء غير الأكفاء، وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفاية وحدها أساسًا في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته، واهتم بالناحية المالية، فوضع القواعد المحكمة الصارمة في

جباية أموال الدولة وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم مما كان يضيع على الدولة ثلث إيراداتها[١].

٣ ـ العدالة:

كان السلطان محمد الفاتح شديد الحرص على إجراء العدالة الدقيقة الحازمة في كل جزء من أجزاء مملكته، شديد الحرص على تحقيق الرفاهية والرخاء لجميع رعاياه.

ولكي يستوثق السلطان الفاتح من هذا الأمر كان يعهد بين الفينة والفينة إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجول أو التطواف في أرجاء البلاد العثمانية ويمنحهم ـ بمرسوم مكتوب يبين مهتهم ـ السلطة المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة، وكيف يجرى ميزان العدل بين الناس في المحاكم، وقد مَنَحَ هؤلاء المبعوثين الحرية الكاملة في تسجيل ونقد ما يرون، ثم يرفعون ذلك إلى السلطان الفاتح.

وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائمًا بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدِّقة بين الناس بدون تمييز أو محاباة، مما يبشِّر باطراد وانتشار الرفاهية والسعادة، بل إن السلطان الفاتح عند خروجه إلى بعض الغزوات كثيرًا ما كان يتوقف في بعض أطراف مملكته ويأمر بنصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته[٢].

---

(١) محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٣٥٢)، ط. البشير مصر.

(٢) صولاق زاده تاريخي.

وأدرك السلطان محمد الفاتح الصلة الوثيقة بين الدين والعدالة، وأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة، وأبصرهم بمواقعها، وأحرصهم على إنفاذها.

وقد عنى الفاتح عناية خاصة برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس، فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة، والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب، بل لابد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع تجله واحترام بين الناس، وأن تكفي مؤونتهم المادية كفاية تامة سداً لسبل الإغراء والرشوة، فوسَّع لهم في المعيشة، وأحاط منصبهم بهالةٍ مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة مساسها على الناس.

وقد حدث أن أحد غلمانه ظهر منه بعض الفساد بأدرنة، فأرسل إليه القاضي بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع، فركب إليه القاضي بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضربًا شديداً، فما إن سمع السلطان الفاتح بذلك حتى أخذه الغضب واستطار به، وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة، وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم يقبل شفاعتهم، فالتمسوا من المولى محيي الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدى السلطان، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه.

فقال له المولى محيي الدين: إن النائب (أي القاضي) بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء، فلم يكن هو عند الضرب قاضيًا، فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله (قتل الغلام) فسكت السلطان محمد خان للعفو عنه، فأحضر السلطان محمد خان عصا كبيرة فضربه بنفسه بها ضربًا شديداً حتى مرض الغلام أربعة أشهر، فعالجوه فبرئ ثم صار ذلك الغلام وزيراً

للسلطان بايزيد خان، واسمه داوود باشا، وكان يدعو للسلطان محمد خان (محمد الفاتح) ويقول: «إن رشدي هذا ما حصل إلا من ضربه»[١].

أما القاضي المرتشي، فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.

٤ ـ تتبعه لمجريات الأمور:

وكان السلطان الفاتح برغم اشتغاله بالحروب والفتوحات التي لا تكاد تنقطع، يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظةٍ واهتمام لا تكاد تفلت من نظره صغيرة ولا كبيرة، وأعناه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي، وبصيرة نافذة، وذاكرة حافظة، وجسم قوي مفتول لا ينال منه الإعياء والكلال، وكان كثيراً ما يعس بالليل ويجوب الطرقات والدروب ليتعرف أحوال الناس بنفسه، ويتسمع إلى شكاياتهم.

كان الصدر الأعظم محمود باشا قد ارتفعت منزلته لدى السلطان الفاتح بعد بلائه العظيم في فتح جزيرة نيجربون، ولكن الفاتح ما لبث أن تجهم له وغضب عليه حينما علم أن وزيره يتغاضى عن نصوح بك ويتغافل عنه ويتستر عليه بالرغم من ظلمه وشروره في البلاد التي يحكمها بحدود ألبانيا، وقال له الفاتح:

«فإذا لم يكن لك علم بأفاعيل نصوح بك كنت غافلاً عن أحوال البلاد، وإذا كنت على علم بها وأغضيت عنه وقعدت عن عقابه كنت عونًا له على الشرِّ والخيانة في حق البلاد، وإن الغفلة مفسدة للوزارة وإذا لم يكن الوزير يقظًا

(١) «الشقائق العثمانية في علماء الدولة العثمانية» طاش كبرى زاده.

مصلحًا في إدارة الأمُور لم يكن ظهيرًا للسلطان وعونًا له فيما يعمل لجلب الخير والرفاهية للرعية والعمران للبلاد».

واستدعى السلطان الفاتح من فوره نصوح بك إليه، فأدبه بنفسه وقوم اعوجاجه»[١].

وقد قرن السلطان الفاتح هذه الإدارة الحازمة اليقظة بأعمال إنشائية واسعة النطاق في أرجاء مملكته، سواء فيما يتعلق بالأغراض الحربية أو السلمية، فأنشأ دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية من البلاد، وأدخل إصلاحات في الجيش.

ويمتاز الفاتح عمن سبقه من السلاطين أنَّه إلى جانب اهتمامه وعنايته بتنظيم وتنمية الجيش البري؛ أولى اهتمامًا كبيرًا وعناية عظيمة للقوة البحرية، وقد أدرك عظم خطورة هذه القوة وشدة الحاجة إليها منذ أزمع على حصار القسطنطينية؛ إذ رأى أنها لا غنى عنها لإحكام حصار هذه المدينة وتطويقها برًا وبحرًا.

نعم . . سبق لبعض سلاطين آل عثمان أن أنشأوا سفنًا أغير بها على بعض السواحل، ولكن لم تكن هناك عناية خاصة بالأسطول.

٥ ـ عنايته بالأسطول البحري:

أدرك السلطان الفاتح أن الاهتمام بالأسطول أمر لابد منه، وعنصر لا غناء عنه، لمد فتوحاته والمحافظة على سلامة حدود دولته المترامية التي تواجه البحر من أنحاء كثيرة، كما علم من قراءته لتاريخ الأمم القديمة مدى ضرورة القوة البحرية لقوة الأُمة وعظمتها، فكان ذلك يزيده إقبالاً على العناية بالأسطول.

---

(١) «تاريخ خير الله أفندي»، وانظر: «الفاتح» للرشيدي.

وقد شاهد بنفسه ما وصلت إليه الدول الإيطالية، وخاصة البندقية من عظمة وقوة وثراء ورخاء بفضل أسطولها القوي الذي يجوب البحار، ومن ثم لم يدخر السلطان الفاتح وسعًا في سبيل تنمية القوة البحرية، وإدخال التحسينات والتقدم عليها، فأمر باتخاذ سفن جنوا البندقية ـ أكبر الدول البحرية في ذلك العهد ـ نماذج تبنى على مثالها السفن العثمانية، وعندما وجد في سينوب سفينة ضخمة نادرة المثال، أمر بأخذها وبناء السفن على نمطها مع إدخال التحسينات عليها، ولهذا الاهتمام البالغ والعناية الفائقة التي أبداها السلطان محمد الفاتح والتقدم الذي أحرزته القوة البحرية في عهده، فَعدَّهُ المؤرخون مؤسسًا للأسطول العثماني[١].

٦ ـ *التجارة والصناعة:*

اهتم السلطان الفاتح بالتجارة والصناعة، وعمل على إنعاشها بجميع الأسباب والوسائل، وكان في ذلك يقتدي بسلفه من الآباء العثمانيين، الذي كانوا دائمًا على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم، وإن كثيرًا من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا عندما خلَّصها الفتح التركي مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشدَّت حركتها.

ومن هذه المدن (نيقية) التي سلمت لأورخان ١٣٣٠ بشروط ملائمة جدًا بعد حصار طويل، وكان العثمانيون كالرومان القدماء مهرة في إنشاء الطرق والكباري مما سهَّل التجارة في جميع أنحاء الدولة، وقد اضطرت الدول الأجنبية إلى السماح بفتح موانيها لتجار الإغريق، وكانوا قد منعوا من دخولها في عهد

---

(١) «حقائق الأخبار عن دول البحار» الأميرال إسماعيل سرهنك.

الأباطرة البيزنطيين، ذلك أنهم قد أصبحوا في تلك الحالة يجرون في ظل الراية العثمانية، وقد اتخذوا زي الأتراك اللذين كان الكاثوليكيون يرفضون دائمًا حتى ذلك الحين أن يمنحوهما أفراد الكنيسة الإغريقية[١]، وكان من أثر ذلك أن عمَّ الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء المملكة، وفي عهد الفاتح ضربت النقود الذهبية لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية.

٧ ـ بناء الأعمال المعمارية:

أثبتت الأعمال المعمارية الرائعة التي تمت في عهد الفاتح، أن هذا السلطان على مستوى عالٍ من التفكير الحضاري، فتحويل كنيسة أياصوفيا إلى مسجد على أُسس معمارية إسلامية راقية، وبناؤه العديد من المساجد التي اعتبرت تحفًا فنية معمارية، وإنشاؤه المدارس والمكتبات والحمامات والمستشفيات بكثرة لم تشهدها العاصمة، وقصره الرائع بها وقلعة الأبراج السبعة الرهيبة، التي أضحت جزءًا من السجن السلطاني؛ حيث كان يسجن فيها السلاطين الذين يُخلعون عن العرش ليقضوا فيها بقية حياتهم، وأحواض بناء السفن ودور الصناعة . . كل هذا يدل على مقدرة تركية فذة للأخذ بالحضارات والاقتباس منها وإدخال التحسينات عليها.

وقد أكثر الفاتح من إنشاء المباني العامة والطرق والجسور في أرجاء مملكته، وأنشأ في القسطنطينية كثيرًا من المساجد والمعاهد، والقصور والمستشفيات، والخانات والحمامات، والأسواق الكبيرة، والحدائق العامة، وأدخل المياة إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة.

---

(١) توماس أرنولد «الدعوة إلى الإسلام».